السلطان سليم الأول
(الشجاع)

فترة الحكم: ١٥١٢- ١٥٢٠

السلطان العثماني التاسع

الألقاب والأسماء الشعرية: ياووز
(أي الشجاع: لشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة)
اسم الأب: السلطان بايزيد الثاني
اسم الأم: عائشة خاتون
محل وتاريخ الميلاد: أماسيا،
١٠ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٤٧٠
العمر عند اعتلاء العرش: ٤٢ عاما
سبب وتاريخ الوفاة: الجمرة الخبيثة،
٢١ من سبتمبر/أيلول سنة ١٥٢٠
مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي في جُورْلُو شرقي إسطنبول، ويقع قبره بإسطنبول بالقرب من مسجد ياووز سليم الذي يحمل اسمه
ابنه: سليمان القانوني
بناته: خديجة سلطان، وفاطمة سلطان، وحفصة سلطان، وشاه سلطان

لوحة بفن المنمنمات للسلطان سليم الأول، بريشة الفنان ليفني في صوره المتخيلة لشجرة العائلة العظمى.

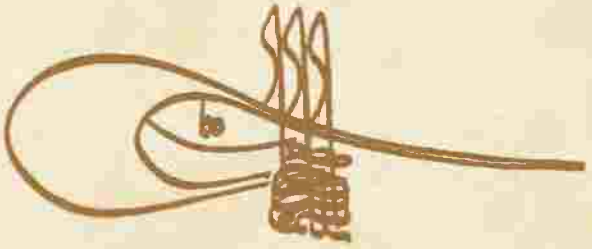

كان الأمير سليم قبل اعتلائه العرش أحد أصغر أبناء بايزيد الثاني، وكان واليا على طرَبْزُون البعيدة تماما عن إسطنبول. وقد تميّز عن إخوته بحملاته الناجحة ضد الجورجيين والصفويين. ولما رأى ياووز أن والده لم يتخذ التدابير اللازمة لمواجهة الخطر الصفوي، انقلب ياووز على والده ونافسه على العرش، وهو ما أكسبه احترام ودعم قوات الانكشارية والعرش في نهاية الأمر.

كان السلطان سليم الأول يهدف أساسا إلى المحافظة على الوحدة في العالم التركي والإسلامي؛ فأبرم اتفاقيات سلام مع القوى الأوروبية ووجّه كامل قوته باتجاه الشرق خلال السنوات الأولى من فترة حكمه. ولكي تتحقق أهدافه، أمر علماء الجغرافيا برسم خريطة للعالم كله مثلما فعل جده السلطان محمد الفاتح، وحدد بدقةٍ المناطقَ التي يريد أن يفتحها.

وردا على التهديد الصفوي المتنامي في الأناضول قام السلطان سليم الأول مبدئيا بإغلاق بوابات الحدود العثمانية مع الدولة الصفوية. وبهذا الإجراء ساءت العلاقات التجارية الصفوية مع الأناضول. وقد أدى تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع المماليك والبندقية ضد العثمانيين إلى المزيد من تدهور العلاقات بين الدولتين. وفي نهاية الأمر، غادر الجيش العثماني إسطنبول لقتال الدولة الصفوية في فارس.

توقع السلطان سليم الأول احتمال حدوث ثورة وأن الجيش قد يكون معرضا لمخاطر قاسية في الطريق. ولذلك فقد أعد قوات احتياطية قوامها أربعون ألف جندي بين سِيوَاسْ وقَيْصَرِي. لكن الجنود أصيبوا بالإجهاد واشتكوا من أن الحملة ستأخذ وقتا طويلا وأن المؤن ستنفد، حتى إن قوات الانكشارية حاولت إثارة التمرد في وقت من الأوقات. فرد السلطان على ذلك بمعاقبة أحمد باشا دوقاقين زاده الذي كان يساند الانكشارية سرا في محاولاتهم للتمرد، كما كان يجري محادثات سرية مع دولْقادر. ونتيجة لذلك، لم تستطع قوات الانكشارية فعل شيء سوى إطاعة السلطان. والواقع أن سليم الأول كان من أكفأ السلاطين في قيادة الجيش في التاريخ العثماني.

واجه الجيش العثماني الصفويين في سهوب جالديران وألحق بالجيش الصفوي هزيمة فادحة عام ١٥١٤. وهرب الشاه إسماعيل من ساحة المعركة، تاركا خلفه كل مقتنياته، وأقام المنتصرون العثمانيون استعراضا في العاصمة الصفوية تبريز. ورغم أن الحملة لم تفتح بلاد فارس الصفوية فإن السلطان سليم الشجاع نجح في القضاء على الخطر الصفوي الذي استهدف الأناضول. وأصبح الجانب الشرقي من الأناضول آمنا. وعلم السلطان جيدا بحالة السخط المتفشية بين جنوده، فتنازل عن خططه الأوسع الخاصة بالوصول إلى أقصى شمال تُرْكِسْتَان وعاد

أحضر السلطان سليم الأول عباءة الرسول ﷺ إلى إسطنبول، وقد وضعها السلطان عبد العزيز لاحقا في خزانة ذهبية على طاولة عالية ذات أربعة أرجل في غرفة العرش بقصر "طوب قابي".

باتجاه الغرب، حيث أمضى الشتاء في أماسيا. وبعد هذا الانتصار الحاسم على الصفويين، أصبحت محطات طريق الحرير[١٨] بين تبريز-حلب وتبريز-بورصا تحت السيطرة العثمانية.

ضم السلطان سليم الأول إمارة دولْقادر للعثمانيين بعد معركة تورناداغ التي خاضها الجيش العثماني في الربيع الذي تلا الحملة على بلاد فارس الصفوية، وبذلك وصل العثمانيون إلى حدود المماليك. وكانت العلاقات العثمانية-المملوكية في تدهور منذ عهد السلطان محمد الفاتح، ولكن بعد تحالف قنصوه الغوري حاكم المماليك مع الصفويين ضد العثمانيين في الوقت الذي ضم فيه العثمانيون إمارة دولْقادر، باتت الحرب احتمالا قائما بين الجانبين. واقترح شريف مكة، المسؤول عن حماية الأراضي المقدسة وضمان سلامة الحجاج، أن يطلب قنصوة الغوري المساعدة من سليم الشجاع، سلطان الدولة الإسلامية الأكثر قوة، في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد هجمات البرتغاليين في البحر الأحمر. ورغم أن قنصوة الغوري رفض هذا الاقتراح بشدة، فإن العرب عقدوا آمالهم على السلطان سليم الشجاع لإنقاذ مكة والمدينة. وكان السلطان سليم الشجاع يهدف إلى تخفيف الضرر الذي أصاب المسلمين ومدنهم المقدسة بسبب البرتغاليين المتمركزين في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأيضا إلى السيطرة على طريق التوابل في حال نجاح حملته على مصر. وكانت إقامة الوحدة التركية- الإسلامية هدفا آخر لحملته.

سيطر المماليك على مالاتيا وديفْركي ومنع الصدر الأعظم[١٩] سنان باشا من عبور نهر الفرات في طريقه إلى بلاد فارس الصفوية. وكذلك شكل قنصوة الغوري تحالفا مع الشاه إسماعيل حاكم الصفويين. وفي تحليل أخير للموقف، استشار السلطان سليم الشجاع علماء الدين فيما ينبغي فعله في مواجهة السلطان المملوكي. وبعد أن حصل على موافقتهم المرجعية على شن حرب ضد المماليك، حشد السلطان سليم الأول جيشه ضد دولة مسلمة أخرى.

أرسل السلطان سليم الشجاع قواته البحرية لشواطئ سوريا لتعزيز زحفه البري. وبينما كان الجيش في

[١٨] طريق الحرير هو سلسلة مترابطة من طرق التجارة القديمة تربط آسيا الصغرى بمناطق عديدة من قارة آسيا وصولا إلى شانغ آي بالصين في الشرق.

[١٩] كان الصدر الأعظم أعلى وزير للسلطان، حيث يمتلك سلطة الوكالة المطلقة، ويستطيع جمع كل الوزراء الآخرين للتباحث في شؤون الدولة في المجلس السلطاني.

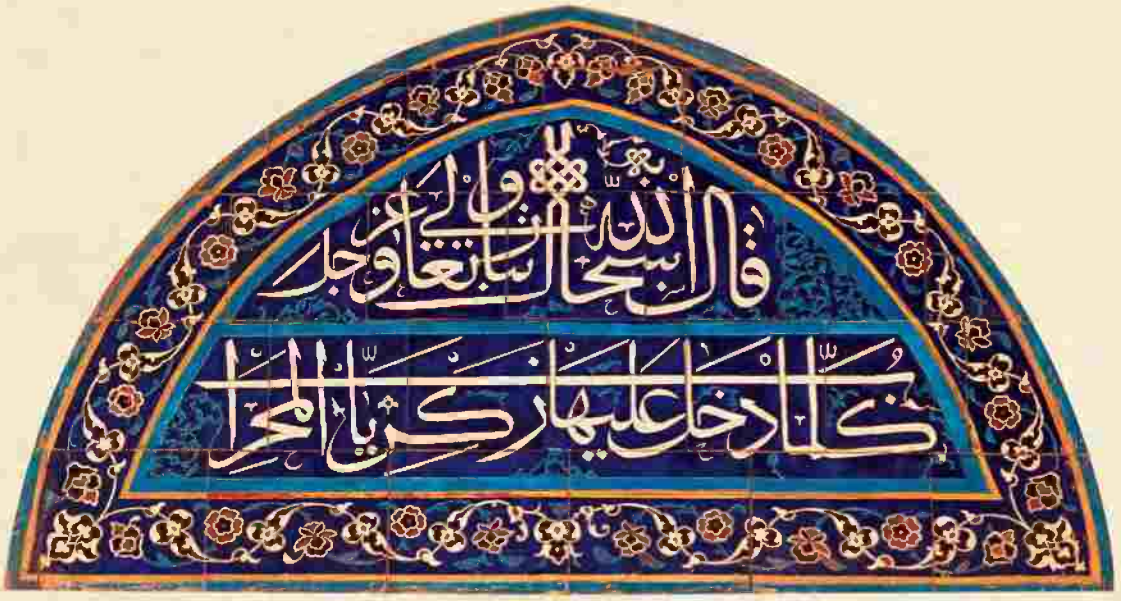

كتابات قرآنية أعلى نافذة الواجهة بمسجد السلطان سليم.

أدِرْنه رفعت إمارة الرمضانيين العلم العثماني أيضا. والتقى الجيشان العثماني والمملوكي في مرج دابق شمال مدينة حلب يوم ٢٤ أغسطس/آب عام ١٥١٦، وغلب العثمانيون المماليك بفضل تقنياتهم العسكرية الأكثر تقدما. وفي نهاية المطاف ضم السلطان سليم الشجاع سوريا ولبنان وفلسطين وفتح الطريق نحو مصر. ومن بين الأحداث التي توضح شخصية السلطان سليم المتواضعة لقاؤه بالخليفة العباسي المتوكل (توفى عام ١٥٤٣) في المسجد الكبير بحلب. فعندما وصفه الخليفة بلقب "حاكم الحرمين" قال سليم الأول إنه يُفضِّل أن يُسمّى "خادم الحرمين". وفي المقابل كان سلطان المماليك يسمى "حامي الحرمين".وقضى السلطان سليم الشتاء في الشام.

أرسل السلطان سليم رسولا إلى السلطان طُومَانْ بك المملوكي الذي خلف قنصوه الغوري، ودعاه للاعتراف بالسيادة العثمانية، لكن طومان باي رفض دعوته. وكان السلطان سليم الشجاع يعتقد أن الانتصار في مرج دابق ليس له أي وزن من دون استيلاء العثمانيين على مصر، ولذلك فقد توجه بالجيش إلى مصر مباشرة. وأعلن للمصريين من أهل المدن والفلاحين أن العثمانيين ليسوا معادين لهم، وأن الحرب الدائرة ليست ضدهم، بل ضد جيش المماليك. وفي تلك الأثناء اعتقد طومان بك أن السلطان العثماني سوف يتبع نفس طريق جنكيز خان وتيمورلنك، وأنه سوف يقود الجيش عائدا به من فلسطين لأنه لن يجرؤ على السير بالجيش إلى مصر. غير أن الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الشجاع اجتازت صحراء سيناء التي يتعذر اجتيازها بفضل نعمة إلهية تمثلت في سقوط الأمطار في الصحراء! ووصل الجيش أخيرا إلى بوابات القاهرة في ١٦ يناير/كانون الثاني عام ١٥١٧.

علم السلطان سليم الشجاع أن طومان باي قد حفر خنادق، وأن الصفوف الأمامية لجيشه تقف على مدافع ثابتة كان قد اشتراها من البندقية. ولذلك دار السلطان سليم حول تل المقطم وهاجم جيش المماليك من اتجاه الجنوب الغربي عند الريدانية بالقرب من القاهرة. فلم يتمكن المماليك حتى من إطلاق مدافعهم. وعندما فقدت ميمنة الجيش العثماني انضباطهم لوقت قصير، خاطر الصدر الأعظم هديم سنان باشا بحياته بعد تعرضه لإصابة خطيرة وتقدم لجمع صفوف الميمنة. وانتهت الحرب بنصر عثماني ساحق، لكن سنان باشا المصاب مات شهيدا.

بعد ذلك أرسل بركات بن محمد الحَسني شريف مكة وفدا مبعوثا على رأسه ابنه الشريف أبو نُميّ، الذي كان يبلغ من العمر اثني عشر عاما في ذلك الوقت، إلى السلطان سليم الشجاع عندما كان السلطان في مصر كي يعلن عن ولائه للسلطان العثماني. وقد قدّم هذا الوفد مفاتيح مكة، كإشارة رمزية على الاعتراف بزعامة السلطان على العالم الإسلامي، كما قدّم أيضا بعض الودائع المقدسة من بينها عباءة الرسول ﷺ ورايته. وقبل أن يودع السلطان سليم الوفد أعطى الشريف بركات مرسوما يقضي بتعيينه أميرا على مكة المكرمة. كما قدم ٢٠٠ ألف عملة ذهبية ليتم توزيعها على المقيمين في المدينتين المقدستين، وشحن مع الوفد عطايا وافرة. ورافق مسؤولان عن مواكب الحرمين السنوية وقاضيان الوفد في رحلة عودته إلى الحجاز، وشاركوا جميعا في توزيع المنح والعطايا.

خلال تلك الفترة كان البرتغاليون قد اخترقوا البحر الأحمر، وأشيعت أنباء تقول إن البرتغاليين سوف يضربون مكة والمدينة، مما أثار قلقا واسعا بين المسلمين. فأمر السلطان سليم من القاهرة ببناء أسطول ضخم في السويس لمواجهة هذا التهديد المحتمل وأرسل الأميرال "سلمان رئيس" إلى ذلك الموقع. وفي وقت لاحق عندما هرب شريف مكة نفسه من مكة يائسا لينجو بحياته، قام سلمان رئيس

مجمع مسجد السلطان سليم الذي بُني على قمة تل يطل على القرن الذهبي بأمر من السلطان سليمان تكريما لوالده المتوفي السلطان سليم الأول.

بعمل بطولي تَمثَّل في حماية مكة من البرتغاليين الذين هاجموا جدة التي تعد المدخل الرئيسي إلى مكة على ساحل البحر الأحمر.

وقبل عودته لإسطنبول، أرسل السلطان سليم الأول الخليفة العباسي وأسرته، وعلماء الدين والشيوخ من القاهرة إلى إسطنبول كإجراء احتياطي، ليصبح علماء الدين والشيوخ معلمين في المدارس العثمانية بإسطنبول. ووضعت القطع الأولى من مجموعة الودائع المقدسة في قصر طوبقابي. وكان وصول الودائع المقدسة مصدر إلهام للبدء في تقليد استمر خمسة قرون متواصلة ومازال مطبقا حتى اليوم، وهو قراءة القرآن على مدار الأربع وعشرين ساعة يوميا في حجرة العرش بقصر طوبقابي أمام عباءة الرسول ﷺ المقدسة، كنوع من الحراسة الروحية، ويقوم بذلك أربعون من حفظة القرآن، ويقال إن الرجل الأربعين كان السلطان سليم نفسه.

الآن وبعد أن تسلم السلطان العثماني الخلافة، بدأت الشريعة الإسلامية تلعب دورا أكثر عمقا في شؤون الدولة، وأصبح موكب الحرمين السنوي، الذي عرف باسم "مواكب الصرة"، وكان يُرسل لتلبية احتياجات الحرمين منذ عهد السلطان بايزيد الأول، وأخذ العثمانيون على عاتقهم مسؤولية حماية المسلمين في جميع أنحاء العالم.

قضى السلطان سليم الشجاع على دولة المماليك بحملته على مصر، وبهذا أصبحت سوريا وفلسطين والحجاز ومصر تحت الإدارة العثمانية المباشرة. وبذلك أصبح جزء كبير من العالم الإسلامي خاضعا للحكم العثماني. وامتلأت الخزانة العثمانية بالمكاسب المالية؛ بما يأتي عن طريق التوابل بالإضافة إلى مكاسب الحرب. كما جاء دخل إضافي من قبرص، حيث بدأ العثمانيون في تحصيل الجزية من البندقية عن جزيرة قبرص، التي كانوا يدفعونها للمماليك في السابق. وزادت مكاسب الحرب خلال عهد السلطان سليم الشجاع بشكل كبير جدا بحيث لم تتسع لها حجرة الخزانة في قصر طوبقابي. وبالتالي، تم شحن الفائض إلى مخازن في قلعة الأبراج السبعة (يديكوله) بإسطنبول. وأصدر

التابوت الحجري للسلطان سليم الأول داخل القبر والذي بني باسمه.

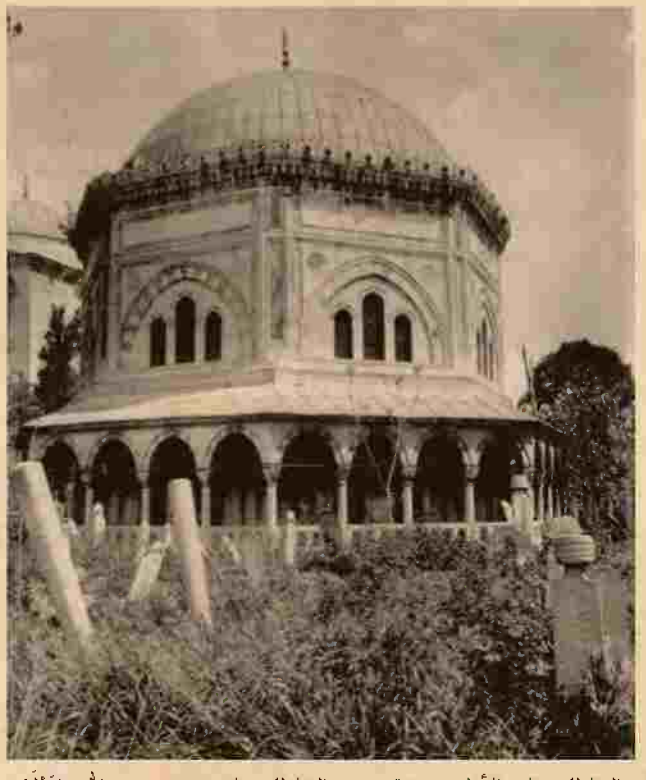

قبر السلطان سليم الأول بحديقة مسجد السلطان سليم (تصوير عبد الله برادَرْلَر).

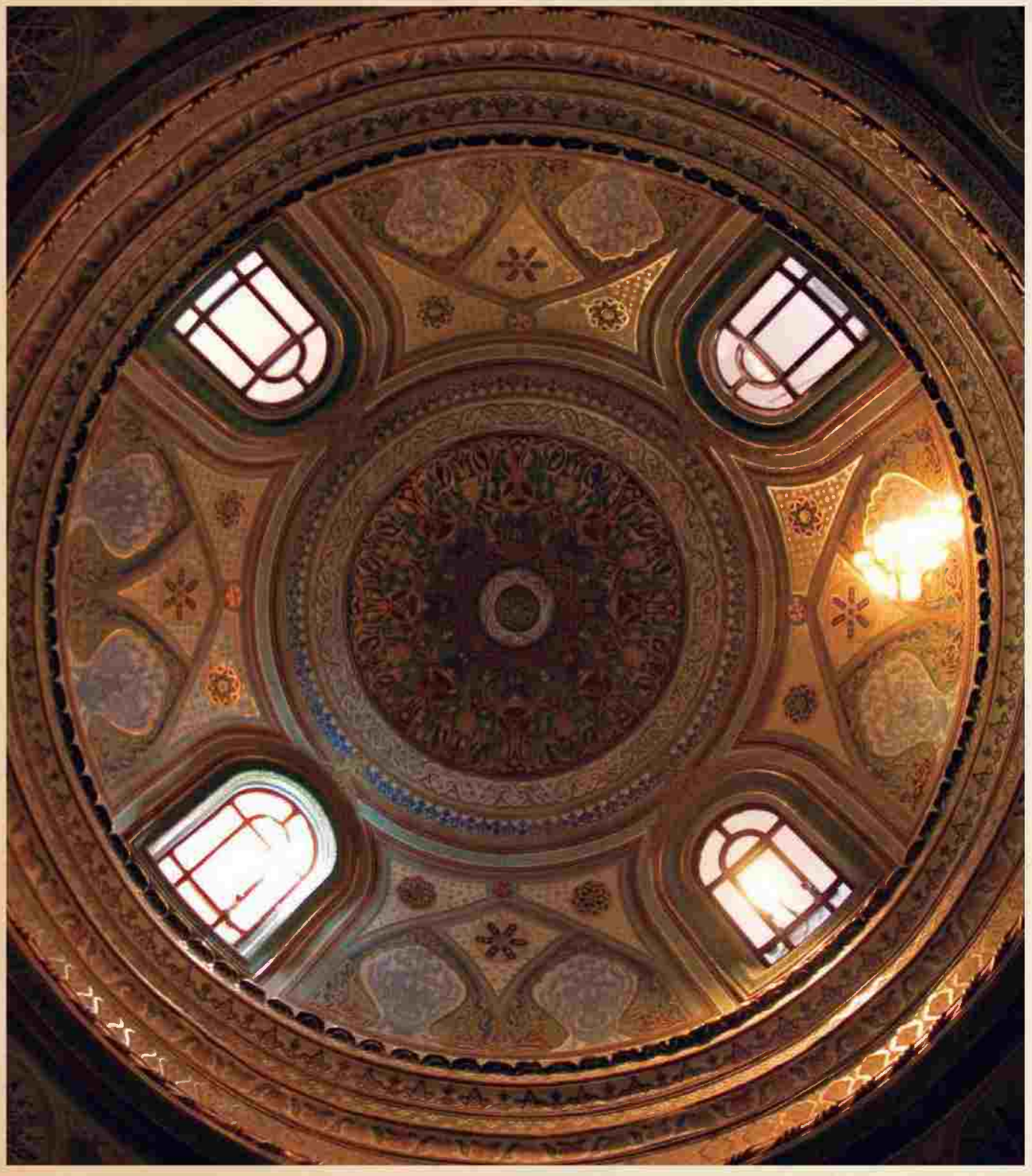

القبة الداخلية للغرفة الخاصة التي بناها السلطان سليم الأول بقصر "طوب قابي".

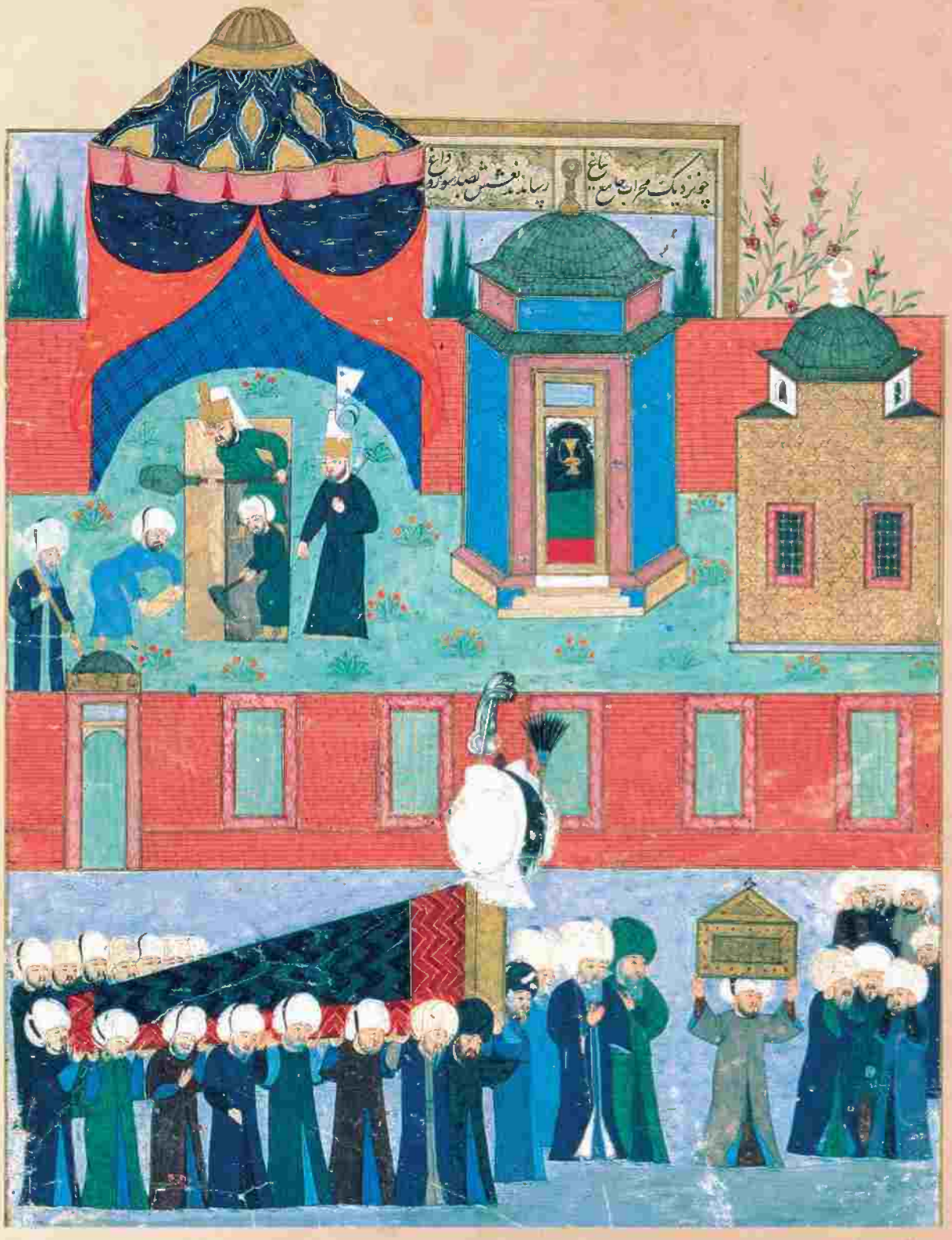

جنازة السلطان سليمان العظيم، من كتاب "تاريخ السلطان سليمان" للقمان. ويقال إن الخزانة الموجودة أمام كفن السلطان تحتوي على أحشائه، لكن المرجح أنها الخزانة الذهبية التي تحتوي على العباءة المقدسة للرسول ﷺ.

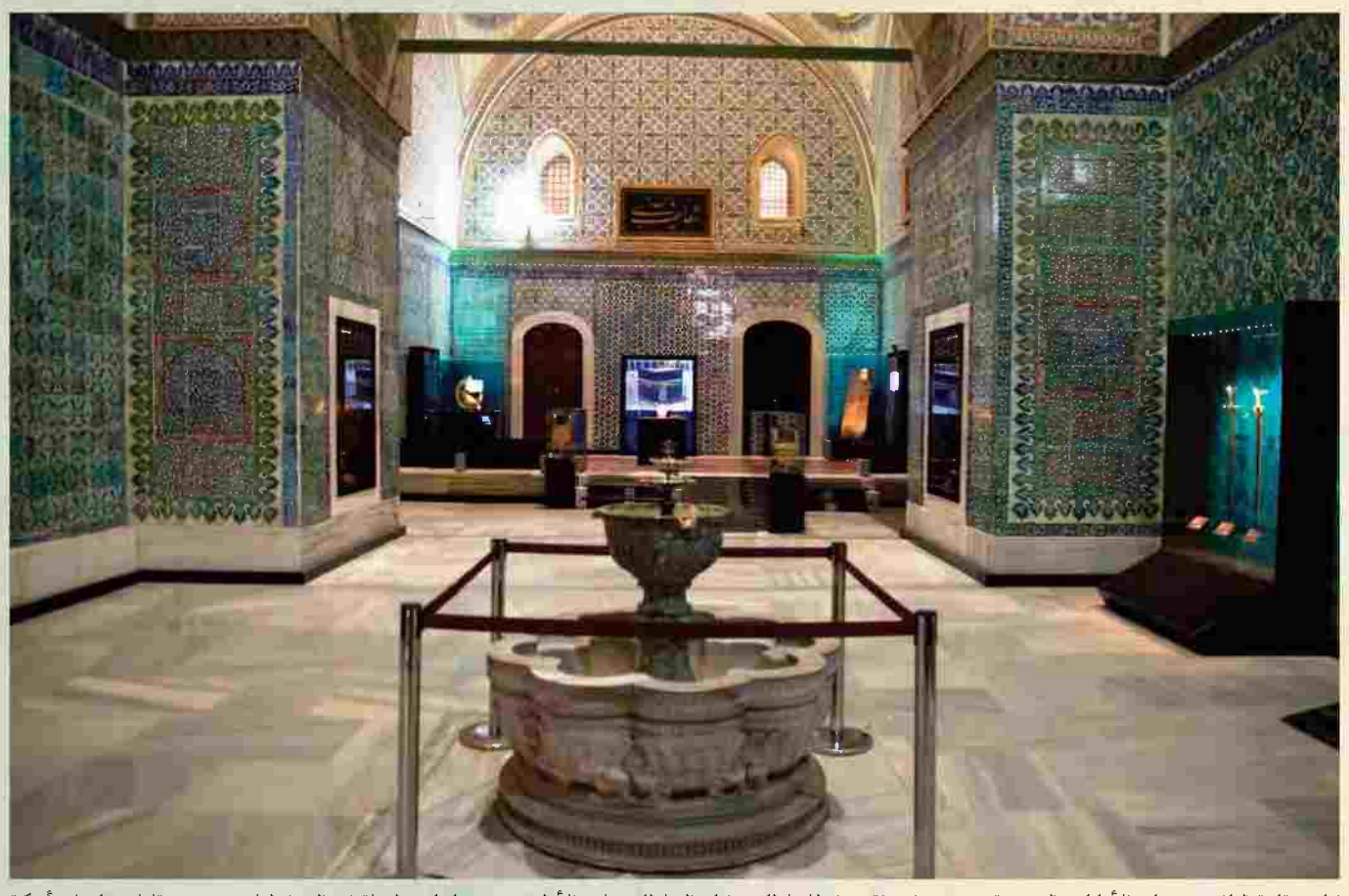

كانت قاعة النافورة بجناح الأمانات المقدسة تستخدم كغرفة عمل للسلطان. وكان السلطان سليم الأول يقضي ساعات طويلة في العمل ليلا ويستريح قليلا هنا على أريكة بسيطة ذات وسادات بدلا من غرفته الخاصة بالقصر.

السلطان سليم الشجاع أمرا قال فيه: "سوف تُختم الخزانة التي ملأتها بالذهب بختم الخليفة الذي سيملؤها مرة أخرى بالنقود، أو ليبق ختمي ساريا". وبهذا استمرت البوابة الخارجية للخزانة السلطانية مختومة بختم السلطان سليم الأول حتى تحول قصر طوبقابي إلى متحف بعد أربعة قرون. ويظهر في وسط الختم اسم السلطان ومكتوب حوله هذه العبارة: "في الله ثقتي التي لا تهتز وعليه اعتمادي". والواقع أن هذه الخزانة الهائلة التي خلفها السلطان سليم وفرت لابنه الأمير سليمان تأمينا ماليا ضخما سوف يحتاجه لفتح بلاد العالم.

كانت جثامين السلاطين المتوفّينَ توضع على المنصة الرخامية ليتم تغسيلها إلى جانب ملاط البخور الذي كان يوضع فيه التراب الناتج عن تنظيف جناح الأمانات المقدسة احتراما للأمانات المقدسة.

أمر السلطان سليم قواته البحرية بالاستعداد لحملة جديدة في طريق عودته من مصر إلى إسطنبول، فأسرع رجاله لزيادة كفاءة البحرية العثمانية إلى الحد الأقصى. فتوسعت المصانع البحرية، وتم تشغيل عدد أكبر من المهندسين البحريين، واستُدعي قائد الأسطول في البحر الأحمر إلى إسطنبول، وفي وقت وجيز ظهر أسطول بحري ضخم يتألف من حوالي ٢٥٠ سفينة جاهزة للإبحار وخوض الحرب.

غير أن عقبتين وقفتا أمام بدء الحملة التي لم يكن يعلم وجهتها إلا السلطان نفسه، تمثّلت الأولى في التمرد الداخلي الذي بدأه جلال البوزوقي في الأناضول، لكنه أُخمد في وقت قصير. لكن عمليات التمرد التي ستظهر لاحقا في الأناضول سيُطلق عليها "الثورات الجلالية". أما العقبة الثانية فكان الدُّمل الذي ظهر على ظهر السلطان قبل مغادرته أدِرْنه، وتم تشخيصه على أنه مرض الجمرة الخبيثة. وقام أحد مساعدي السلطان ويدعى حسن جان بفتح الدمل، لكنه نما وأصبح جرحا كبيرا. وفي النهاية توفي السلطان بالقرب من جورلو، مثل أبيه، في ٢١ سبتمبر/أيلول عام ١٥٢٠، خلال نقله إلى إسطنبول. وتروي المصادر أنه قرأ سورة يس خلال اللحظات الأخيرة من حياته.

وتوقع الباحثون أن السلطان سليم الشجاع كان ينوي توجيه حملته الأخيرة إلى صقلية أو إيطاليا أو جزيرة رودس في بحر إيجة.

كان السلطان سليم الشجاع سلطانا استثنائيا نجح في إنجاز أعمال ومشاريع لا يمكن تنفيذها في العادة إلا في ثمانين عاما خلال فترة حكمه التي استمرت لسبعة أعوام ونصف فقط. ولذلك فهو يعد واحدا من أهم وأبرز سلاطين العالم في التاريخ الإسلامي. كما حافظ السلطان سليم على مكانة استثنائية في تاريخ السلالة العثمانية كان يغبطه عليها السلاطين العثمانيون المتأخرون. وكان السلطان سليم الأول شاعرا مميزا، مثل أبيه وجده، حيث كتب العديد من القصائد باللغتين العربية والفارسية باسم "سليمي". ومن المعروف أنه كان يدعم البحث العلمي بقوة ويحترم العلماء كثيرا. وقد تزامنت فترة حكمه مع ظهور علماء بارزين مثل زنبيلي علي أفندي وابن كمال. ورغم بساطة السلطان سليم وهدوئه على الصعيد الشخصي، فإنه كان في غاية الجد والحزم فيما يخص شؤون الدولة.

تبنى السلطان سليم حرية التعبير مهما كانت درجة التناقض بين الأفكار الأخرى وأفكاره، فكان يستمع بانتباه لجميع الأفكار الموجودة. وكان أحيانا يغير رأيه بعد تأمل عدة أيام، وكان يقر دائما بحكم الأغلبية فيما يخص أمور الدولة، ويعاقب بشدة الأشخاص الذين يعارضون بسرية القرار الذي تم التصديق عليه والعمل به بالفعل. ورغم حدة مزاجه وسرعة غضبه فإنه كان يقدر الكفاءات. وكان العمل معه صعبا في أغلب الأحيان، لكن من كان يعرف ذلك كان يحظى بتقدير كبير من السلطان. وكان يكره التبذير والترف والتفاخر، ويفضل طبقا واحدا في كل وجبة، واستخدام الأدوات الخشبية. وكان يهتم كثيرا بقوة الخزانة السلطانية. ولم يقم ببناء

أي قصر صيفي أو قصر على البوسفور لنفسه. وكان قليل الكلام والابتسام، وعندما يتكلم كان يتكلم بوضوح ويكرر الكلمات عند الضرورة.

وقد أحب السلطان سليم الأول القراءة، حتى إنه كان يصطحب الكثير من الكتب خلال حملاته. وفي طريق عودته من القاهرة إلى إسطنبول أوكل لابن كمال مهمة ترجمة كتاب "النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، وكان يقرأ الترجمة في الطريق جزءًا جزءًا. ومن الأحداث المشهورة أن ابن كمال كان يسير أمام السلطان خلال رحلة عودتهم من نصر مرج دابق، وأثار فرس ابن كمال بعض الطين على ثياب السلطان، فتبسم السلطان الذي كان يقدر معلميه وعلماءه، وقال إن هذا الطين حلية على ثيابه، وأمر أن يحتفظ بهذا الثوب هكذا دون غسيل، وأن يُغطّى به تابوته. ويعد السلطان سليم الأول الشاعر والفيلسوف والعالم واحدا من أكثر السلاطين العثمانيين ثقافة وحكمة، ومما يدلل على شخصيته المتواضعة أنه لم يسمح بقيام احتفالات ومسيرات للانتصار في طريق عودته من مصر، وانتظر حتى منتصف الليل ليدخل قصر طوبقابي بهدوء.